مفهوم المدوّنة اللّغويّة في ضوء النّظرية الخليليّة الحديثة .

The conception of linguistic corpus through The Neo_ khalilian theory

عتابي بن شرقي *

تاريخ تقديم البحث **5/5/2018** تاريخ القبول **27/10/2018**

ملخص

تعتبر النّظرية الخليليّة الحديثة قراءة جديدة للتّراث العربيّ في ضوء ما توصلت إليه اللّسانيّات الغربيّة الحديثة ، وهي كغيرها من النّظريات اللّسانيّة تقوم على مجموعة من المصطلحات المنسجمة فيما بينها ، من أبرزها المدوّنة ، وهو المصطلح الذي سنسلّط الضوء عليه ، فنعرّف به وبشروطه ومبادئه .

الكلمات الدالة: المدوّنة ، التراث العربيّ ، اللّسانيّات الحديثة ، السّليقة .

Abstract

The Neo_ khalilian theory is considered as a new approach of the arabic tradition according to the achieved results of the occidental linguistics. Although , this linguistic theory is based on a set of coordinated terms which are known as **corpus** what we will give more interest During this study.

The concerned questions that should be answered are as follows :

The definition of **corpus ?**

The main principles that are built on ?

The main conditions to apply the **corpus ?**

Keyboard: corpus , Neo_ khalilian theory, arabic tradition , modern linguistics.

* قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الأداب واللغات ، جامعة معسكر

مقدّمة : سنعتمد في هذا البحث على النّظرية الخليليّة الحديثة[1] التي أسسها اللّسانيّ الجزائريّ عبد الرحمن الحاج صالح[2] حيث تحدث في كتابه الموسوم بالسّماع اللّغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة على ما يلي:

مفهوم المدوّنة عند العرب والشّروط الّتي وضعها علماء اللّغة العربيّة لها ، ومفهوم الفصاحة بالاعتماد على كتاب سيبويه واللغويّين الّذين جاءوا بعده وأخذوا عنه ، كما حدّد الرقعة الزمانيّة والمكانيّة لها ، وأبرز شروط الفصيح وعلى من كانت تُطلق هذه الصّفة ، والأهمّ من ذلك أنّه بيّن الأسس العلميّة الّتي بُني عليها التّراث العربيّ الأصيل ، أي كلّ ما أبدعه العلماء العرب قبل أنّ يزحف الفكر الأرسطي على علوم اللّغة العربيّة فيغيّر كثيرًا من المفاهيم ، حيث وقف على الأصول والمنطلقات الّتي اعتمدها النّحاة العرب في جمعهم لمدوّنة اللّغة العربيّة ، ثمّ الوسائل الّتي استخدموها في التّحليل .

إنّ كتاب " السّماع اللّغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة " هذا يعدّ الحلقة الأولى في أبحاثه الخاصّة بالنّظريّات والمفاهيم التّي قام عليها التّراث العربيّ الأصيل ، حيث يقول عنه : " إنّ هذا الكتاب الّذي نقدّمه لكافة اللّغويّين العرب وكلّ من له اهتّمام بالتّراث اللّغويّ العلميّ العربيّ هو أوّل حلقة لسلسلة من الدّراسات في النّظريّات والمفاهيم الأساسيّة الّتي بني عليها هذا التّراث وما يرتبط بذلك من المناهج الأصيلة في تدوين اللّغة وفي التّحليل اللّغويّ "[3].

2 . المدوّنة اللّغويّة[4] : مبادئها ومقاييس صحّتها :

إنّ السّماع (مصطلح كثر استعماله عند اللغويين العرب القدامى ، والذي نقصد به المدوّنة اللغويّة) هو أوّل الأدلة النّحويّة الّتي يستخدمها النّحويّ في استنباط القواعد النّحويّة ، فاللّغويّ قبل أن يدرس أي لغة من اللّغات عليه أن يجمعها من النّاطقين الأصليّين بها ، والملاحظ أن السّماع اللّغويّ العربيّ قد أجمع العلماء على حجّيته ، واعتبروه دليلًا قاطعًا على صحّة القواعد النّحويّة ؛ لأنّه أُخذ عن المتكلمين العرب الفصحاء ، أي مستعملي اللّغة العربيّة بالسّليقة .

فماذا يُقصد به ؟ وما أوصافه وما محتواه ؟ وهل تتوفر فيه الشّروط الّتي تجعله موضوعيًّا علميًّا ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه من تتبّع أقوال اللّسانيّ الجزائريّ عبد الرّحمن الحاج صالح .

2 . 1 . المدوّنة اللّغويّة :

عند الحديث عن السّماع اللّغويّ العربيّ أو المدوّنة التي جمعها اللغويون العرب يخطر على البال تعريفان تناقلهما العلماء القدماء ، وبعض اللّسانيّين العرب المحدثين ، الأوّل

هو : تعريف أبي البركات بن الأنباريّ في كتابه الموسوم بـ : " الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النّحو "، والثّاني هو تعريف جلال الدّين السّيوطيّ في كتابه : " الاقتراح في علم أصول النّحو " .

أمّا الأوّل فقد عرّف السّماع بقوله : " هو الكلام العربيّ الفصيح ، المنقول النّقل الصّحيح الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة ، فخرج عنه كلّ ما جاء في غير كلام العرب من المولّدين ، وما شذّ من كلامهم كالجزم بـ (لن) ... "[5] ، فالظّاهر من هذا التّعريف أنّ ابن الأنباريّ يصف السّماع اللّغويّ العربيّ بالفصاحة – سنتطرق إلى مفهوم هذا المصطلح عند الحاج صالح في بحث آخر إن شاء الله – ، كما يشترط فيه أنْ يكون منقولا نقلا صحيحًا أي : كلّ ما سُمع من جماعة عن أخرى يستحيل تواطؤها على الكذب ، أو نُقل عن عربيّ فصيح مباشرة ، ثمّ أضاف قيدا ثالثًا ، هو قوله : " الخارج عن حدّ القلّة إلى حدّ الكثرة " ، ومقصوده من ذلك أن يكون السّماع كثيرًا مطّردًا ، فلا يحتجّ بالشاذّ القليل .

أمّا الثّانيّ (جلال الدّين السّيوطيّ) فقد استفاد من سابقيْه ومن الأصوليّين ، فحاول إلباس أصول النّحو لباس أصول الفقه (كما صرّح في مقدّمة كتابه) ، فقال عن السّماع : " وأعني به ما ثبت في كلام من يوثق بفصاحته ؛ فشمل كلام الله تعالى ، وهو القرآن الكريم ، وكلام نبيه صلى الله عليه وسلّم ، وكلام العرب قبل بعثته ، وفي زمنه ، وبعده إلى أنّ فسدت الألسنة ، نظمًا ونثرًا ، عن مسلم أو كافر "[6] .

فالملاحظ من هذا التّعريف أنّ السيوطيّ جعل الفصاحة شرطًا أساسيًا للسّماع الّذي يدخل فيه ثلاثة أشياء، هي :

1 - القرآن الكريم ، وهو أرقى أنواع المسموع .

2- يليه كلام الرّسول – صلى الله عليه وسلم –

3- وآخرها كلام العرب الّذين عاشوا قبل البعثة والّذين عاصروا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالإضافة إلى كلام كلّ من عاش بعد وفاته صلى اللّه عليه وسلّم إلى أن اندثرت الفصاحة اللّغويّة ، إلّا أنّ السّيوطيّ لم يأخذ عامل الاطّراد بعين الاعتبار.

بعد أنّ عرضتُ مفهوم السّماع عند العلماء الّذين أسسوا أصول النّحو ، واستخرجوا تعريفاتهم ممّا أضمرته عبارات النّحاة الّذين سبقوهم ، سنرى فيما يلي رأي عبد الرّحمن الحاج صالح فيه .

لاحظت في أبحاث عبد الرّحمن الحاج صالح عند حديثه عن السّماع اللّغويّ العربيّ ملاحظتين : الأولى : أنّه يستعمل مصطلح المدوّنة كثيرًا بالمقارنة مع استعماله لمصطلح السّماع أو المصطلحات القريبة منه كالنّقل أو المسموع .

الثّانية : أنّه يصف المدوّنة العربيّة بأنّها أعظم مدوّنة شهدها التّاريخ ، حيث يقول عنها : " هي كما رأينا، أعظم مدوّنة لغويّة شهدها تاريخ البشريّة وقد رأينا أن القبائل العربيّة الّتي أخذت منها اللّغة - ونتج عن ذلك هذا المسموع العملاق - كانت تغطي شبه الجزيرة كلّها في الجاهليّة وكان الأخذ لما روى واشتهر عند فصحاء العرب من شعر الشّعراء الّذين وصلت منهم إلينا البيت أو البيتان أو الدّواوين الكبيرة "[7] ، وهذه العبارة أو ما في معناها تكررت في أبحاثه أكثر من مرّة .

إذن فاللّغويّون العرب أخذوا اللّغة العربيّة من أفواه العرب الفصحاء الّذين عاشوا في شبه الجزيرة العربيّة، وكان هدفهم في دراسة نظام اللّغة العربيّة باستخراج القوانين الّتي تخضع لها العربية هو خدمة القرآن الكريم وحمايته من اللّحن الّذي شاع على الألسنة بسبب اختلاط العرب الفصحاء بالأعاجم .

فرغبة النّحاة في خدمة القرآن الكريم ، وحمايته من اللّحن ، والوقوف على معانيه ، إفرادًا وتركيبًا ، هي الباعث الأساس ، والمنطلق الرّئيس في تقعيد القواعد ، ومن أدلّة ذلك أنّ " أوّل من وضع هذا النّحو هو أيضًا أوّل من استقرى النّص القرآنيّ لاستخراج الثّوابت اللّغويّة الخاصّة بإعرابه "[8] ، كما أنّ تاريخ النّحو العربيّ قد أثبت أنّ معظم النّحاة كانو قراءً، على رأسهم أبو عمر بن العلاء أوّل نحويّ شرع في جمع كلام العرب من بطون القبائل العربيّة.

لا شك أنّ مكانة القرآن الكريم باعتباره دستور الحياة كانت السّبب الأساس في شروع النّحاة في جمع كلام العرب شعرًا ونثرًا ، وهذا الكلام المجموع من أفواه الفصحاء هو الّذي سيسمح لهم بتفسير كلام الله عزّ وجلّ والوقوف على معانيه ، وقد أجاز الصّحابة رضي الله عنهم تفسير معاني القرآن اللّغويّة استنادا إلى كلام العرب الفصحاء ، لأنّ القرآن أُنزل بلغتهم ، هذا ما جعل أبو عمر بن العلاء ينطلق - كما ذكرنا ، وهو أحد المشيدّين الأوّائل للنّحو العربيّ - في جمع كلام العرب شعرًا ونثرًا .

فالنّص القرآنيّ - بقرآته على خلاف في الاستشهاد بها - وكلام العرب الفصيح شكّلا المدوّنة اللّغويّة العربيّة ، وأطلق عليها اللّغويّون القدامى المسموع أو السّماع ، وسمّاه بعضهم فيما بعد بالنّقل ، وهذا المصطلح الأخير(النّقل) أعمّ من مصطلح السّماع لأنّ النّقل يحتوي على المسموع والمكتوب من كلام العرب الفصحاء ، أمّا السّماع فهو كلّ ما روي مشافهة

عن النّاطقين السّليقيين ، وسأقف على مفهومه ومحتواه ومصدره من وجهة نظر الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح ، فأقول :

يرى الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح أنّ المدوّنة الّتي اعتمد عليها اللّغويّون العرب تنحصر في الأصل في نوعين من النّصوص ، هي :

_ نصوص محفوظة في الصّدور ، ونصوص حرّة عفويّة .

أمّا النّصوص المحفوظة فهي تلك النّصوص المنقولة مشافهة من جيل إلى جيل ، فاللّغويّون لم يأخذوها من مصدرها الأصليّ ، والملاحظ على هذه النّصوص أنّها مختلفة من حيث تأديتها بسب اختلاف المنشأ اللّغويّ للنّاقلين لها (هم فصحاء كذلك) ، وتشمل هذه النّصوص القراءات القرآنيّة المتوارثة والمنقولة عن الصّحابة والتّابعين إضافة إلى الشّعر الجاهليّ ، وشعر المخضرمين المنقول من الفصحاء كذلك .

إنّ أصل القرآن الكريم _ كما هو معروف – هو مصحف عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، وهو نصّ محفوظ ومصان ، إذ قيّض الله سبحانه وتعالى من يعتني به ويصونه ، كما أنّه في قمّة الفصاحة والبيان، مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾[9] ، وفي ذلك يقول أحمد مختار عمر : " وقد أجمعوا على القرآن الكريم من حيث الفصاحةُ إذ كان وما زال في أعلى درجات الفصاحة فكان موقفهم منه موحدًا ، ومجمعًا عليه فاستشهدوا به على قواعدهم المطّردة "[10].

لكنّ هناك من اعترض على استشهاد النّحاة بالقراءات القرآنيّة بسبب اختلافها ، فنقول إن هذه القراءات هي ثابتة عن قراء فصحاء أي : أنّها منقولة نقلًا صحيحًا عن الصّحابة والتّابعين الأئمة الموثوق في علمهم ، والمعترف بهم ، وهي في حقيقة الأمر ناتجة عن احتمالات ، فالنّص القرآنيّ كما هو معلوم لم يدون في بداية أمره مشكولًا ، وعليه فإنّ المفردة الواحدة قد تحتمل أكثر من قراءة، وهذا هو السّبب الرّئيس في ظهور تعدد القراءات .

يقول جلال الدّين السّيوطيّ عن القراءات القرآنيّة بما فيها القراءات الشّاذّة : " وقد أطبق النّاس على الاحتجاج بالقراءات الشّاذّة في العربيّة إذا لم تخالف قياسًا معلومًا ، بل ولو خالفته يحتجّ بها في مثل ذلك الحرف بعيّنه ، وإن لم يجز القياس عليه كما يحتجّ بالمُجمع على وروده ومخالفته القياس في ذلك الوارد بعينه ، ولا يُقاس عليه ، نحو : استحوذ ، ويأبى ، وما ذكرته من الاحتجاج بالقراءة الشّاذّة لا أعلم فيه خلافًا بين النّحاة "[11].

فرغم اختلاف النّحاة المتأخرين في الأخذ بهذه القراءات وتباينِ موقفهم منها كما أوضحه أحمد مختار عمر وبيّنه بقراءات استبعدها بعض النّحاة فقال : " أمّا قراءات القرآن الكريم فموقفهم منها اختلف على حسب صحّة الرّواية عن القارئ العدل ولو كان فردًا ، وقد استبّعد بعضُهم قراءات سبعيّة من مجال الاستشهاد مثل قراءة ابن عامر ﴿ وكذلك زُيّن ﴾[12] بضمّ الزّاي . وقراءة حمزة : ﴿ واتّقوا الله الّذي تساءلون به والأرحامِ ﴾[13] بجرّ الأرحام عطفًا على الضّمير المتصل دون إعادة حرف الجر. كما ردّوا قراءة نافع : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾[14] بإبدال ياء مفعلة همزة في الجمع ، وهي ليست زائدة . وفي الوقت نفسه قبلوا قراءات غير سبعيّة في الاستشهاد مثل : قراءة الحسن : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾[15] بمنع مصر من الصّرف ... فالنّوع الأوّل وإنّ حققّ شروط القرّاء فإنّه لم يحققّ شروط اللّغويّين ، والنّوع الثانيّ ، وإنّ لم يحققّ شروط القراء ، فقد حقق شروط اللّغويّين "[16]. إلّا أنّ هذا الاختلاف لا ينفي أنّ القراءات القرآنية منقولة نقلًا صحيحًا عن أئمة موثوق في فصاحتهم .

وخلاصة القول : إنّ القراءات القرآنيّة قد استشهد النّحاة بها لأنّها منقولة عن أئمة قراء فصحاء، حتّى ولو كانت مخالفة للقياس ، أي القياس النّحويّ .

إذا كان هذا شأن القرآن الكريم وقراءاته ، فماذا يُقال عن الشّعر الجاهليّ ، وشعر المخضرمين ؟

يرى الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح بأنّ الشّعر الجاهليّ ، ورغم اختلاف الرّوايات إلاّ أنّه لم يتغيّر من حيث الأصل والمنشأ ، فهو شعر محفوظ كذلك حفظ صدور . والأمر نفسه بالنّسبة لشعر المخضرمين . فكلّ ما استشهد به النّحاة هو محفوظ متوارث ، فما المقصود بالتوارث ؟

لاشك أنّ كتاب سيبويه يعدّ عملًا ناضجًا ظهر فيه النحّو العربيّ مكتمل البناء ، فمنحنى النّحو العربيّ قد بلغ ذروته في الكتاب لأنّ مؤلفه أخذ عن شيوخه – على رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) كما بيّنا سابقًا – وهم سمعوا عن العرب الخُلص ، أو ممن روى عنهم ، وهؤلاء الرّواة فصحاء أيضا ، والنّحاة الذين جاءوا بعد سيبويه (ت 185 هـ) أخذوا عنه ، فإمّا أنّهم لخصوا محتوى كتابه ، كما فعل المبرّد في المقتضب (ت 285 هـ) ، وابن السّرّاج في أصوله (ت 316 هـ) ، أو شرحوه كما فعل الرّمانيّ (ت 384 هـ) ، والسّيرافيّ (ت 368 هـ) .

فالكتاب كما يقول عبد الرّحمن الحاج صالح ، هو : " أقدم كتاب في النّحو وصل إلينا وهو أيضًا من أعظم ما أنتجه الفكر العربيّ . وقد جاء كخاتمة لأعمال كبيرة جدّا قام بها هذا الجيل الثاني من علماء العربيّة وتلاميذهم وتلاميذ هؤلاء ولم يتأثر أيّ واحد منهم بأيّ فنّ أو أي علم خارجي كالنّحو اليونانيّ أو المنطق الأرسطيّ كما يثبته كلّ ما يحتوي عليه "[17] .

هذا ، ولم يؤلّف سيبويه رحمه الله كتابه إلّا بعد مُضى قرابة ثمانين سنّة من بداية جمع الكلام العربيّ الفصيح ، وقد لاحظ الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح من خلال تفحصه للكتاب ودارسته له أنّ صاحبه يُكثر من عبارات : " سمعت " و " حدثني " ولا يقول : " قرأت في " ، فقال : "... فلم يأت في هذا الكتاب ولا مرّة واحدة كلمة قرأت في أو أخبرني فلان في كتابه وغير ذلك بل يلجأ سيبويه من أوّل كتابه إلى آخر سطوره إلى عبارة سمعت وحدثني ممّا يدلّ على أنّ مصادره هي كلّها شفاهيّة "[18]، والسّؤال الّذي يّمكن أن يُطرح ألم يعرف العرب التّدوين قبل ظهور الكتاب ؟ وهل اعتمد العرب في تفسير الظّواهر اللّغويّة على الجانب المنطوق من اللّغة ، وأهملوا المكتوب ؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه .

إنّ عبارات سيبويه التّي سبق ذكرها تدلّ على أنّ المصادر الّتي استخدمها سيبويه كلّها شفاهيّة، وهذا لا يعني أنّ العلماء العرب في زمن سيبويه وقبله لم يلجأوا إلى الكتابة ، بل هناك كتب موثوقة أثبت أصحابها أنّ بعض اللّغويّين كانوا يدوّنون ما يسمعونه من أجل تقييده ، وعدم اعتماد علماء اللّغة العربيّة على ما وجدوه مكتوبًا يعود إلى عدم ثقتهم به ، فالعلماء الأوائل قد برهنوا أنّ بعض ما كتب من المعلومات التّاريخيّة والأدبيّة مشكوك في صحّته لأنّه لا تعرف غالبًا مصادر ما كانوا يسمّونه بالصّحف"[19] .

فالعرب عرفت الكتابة قبل سيبويه إلّا أنّ بعض ما كتبوه يُجهل مصدره ، فالصّحف " حُشيت بالحكايات العجيبة والأساطير الكاذبة وكلام موزون يشبه الشّعر وقد يكون شعرًا ونسب هذا الشّعر إلى أقوام بادوا ولم ينقل عنهم في الواقع ، أي شعر بكيفيّة مقطوعة "[20] ، لهذا أعرَض النّحاة عن بعض النّصوص المكتوبة .

وهذا الكلام ينطبق على كلّ ما قاله سيبويه وغيرُه من النّحاة ، حيث كانوا يعتمدون في تحرياتهم الميدانيّة على ما يقوله العربيّ الفصيح ، فيستشهدون به ، ويشيرون إلى فصاحته ، وفي ذلك يقول الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح : " فقد بحثنا فيما وصل إلينا من كلام الكسائيّ ثمّ فيما يقوله الفرّاء في معاني القرآن ثمّ فيما يقوله أبو عبيدة في النّقائض وغيره من كتبه وكتب أبي زيد الأنصاريّ وما عزي إلى الخليل بن أحمد وزملائه (من خلال كتاب سيبويه) . فكلّهم يعتمدون مصدرًا واحدًا : فصحاء العرب ليس إلّا... "[21] فهؤلاء النّحاة (

بصريّين وكوفيّين) كانوا يعتمدون المشافهة بنقلهم عن العرب الفصحاء الّذين لم تفسد ألسنتهم ، ولم يخالطوا الأعاجم ، فالفصاحة هي الشّرط الأساس لسماعهم .

وسنتحدث فيما بعد عن مفهوم الفصاحة وعلى من يطلق النّحاة هذه الصّفة بعد أن نتحدث عن مباديء السّماع اللّغويّ ، وخصائصه بشكل مختصر.

عقد الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح في كتابه :" السّماع اللغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة " بابا للحديث عن مفهوم السّماع اللغويّ ، ومحتوى المسموع ، وخصائصِه ، والمقاييس الّتي وضعها العلماء العرب لصحّته .

وقد نبّه إلى أنّ السّماع عند النّحاة يختلف تمامًا عن السّماع عند علماء الحديث النّبوي الشّريف ، حيث إنّ النّحويّ لا يحتاج إلى ذكر السّند ، وهذا دأب النّحاة الّذين أخذوا مدوّنتهم مباشرة من أفواه الفصحاء ، والسّؤال الّذي يُمكن أنّ أطرحه : لماذا ؟ وهل هذا عمل علميّ ؟ والجواب : إنّ ضابط النّحاة هو أنّ الناقلين كلّهم فصحاء فالنّحويّ في ذلك الزّمان يمثل المصدر الأوّل لما سمعه ، أو المصدر الثّاني إذا روي عن شيخه ، أمّا المحدّثون فكانوا " مضطرين إلى ذكر أسانيدهم الطويلة – في ذلك الزمان بالذات – إلى التّابعين ثمّ الصّحابة "[22] .

من المنطقيّ أن يَعمد علماء الحديث إلى ذكر السّند ، أي سلسلة الرّجال الّذين رووا الحديث النّبويّ الشّريف حتّى يتأكدوا أنّ الحديث مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالتّالي استحالة الطّعن فيه ، بل واهتموا كذلك بأخلاق الرّواة فأسسوا علمًا قائمًا بذاته هو علم الجرح والتّعديل . لكنّ النّحاة لم يفعلوا ذلك لأنّ من أُخذت عنهم اللّغة تحقق فيهم شرط الفصاحة سواء أكانوا ممّن سُمع منهم مباشرة أم كانوا من الموردين .

فالسّماع اللّغويّ عند النّحاة له شروطه الّتي قام عليها ومبادئه الخاصّة به .

2 . 2 . مباديء المدوّنة اللّغويّة :

بعد استفاضته في الحديث عن النّصوص المحفوظة عند العرب وتنبيهه على الفوارق الموجودة بين مدوّنة اللغويّين ومدوّنة علماء الحديث خرج الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح بجملة من المباديء الّتي تميّز المدوّنة اللغويّة يُمكن تلخّيصها فيما يلي :

1 - إنّ الأسس العلميّة للسّماع عند اللغويّين تختلف عن الأسس الّتي وضعها المحدّثين أثناء تدوين الحديث النبويّ ، ويرجع ذلك إلى اختلاف الظّروف والأحداث التّاريخيّة ، حيث إنّ اللغويّين أخذوا اللّغة مباشرة من فصحاء العرب الّذين عاشوا معهم في زمن الفصاحة السّليقيّة فـ" السّماع من الفصحاء وحدهم إذا تحقّق العلماء من فصاحتهم كان كافيًا كحجّة أي كمرجع علميّ ويكفي أنّ ينسب العلماء – وهم معروفون - ما سمعوه إلى هؤلاء

لتثبيت الرّواية ويكون الثّبوت مطلقًا إذا أجمع العلماء على ذلك "[23]، وعليه فإنّ النحويّ غير ملزم بذكر اسم الشّاعر الّذي يستشهد به ، ولا اسم الراويّ لتأكدّهم – كما قلت سابقًا – من فصاحة الراويّ والمروي عنه ، وبالتّالي فصاحة المسموع .

2 – إنّ ما يميّز السّماع اللغويّ العربيّ هو قابليّته للتّحقق من صحّته ، وهذا ما تضمره العبارات الّتي كان يستعملها سيبويه من مثل : " سمعت " و " أنشدني" فهو بهذه العبارات يخاطب علماء عصره ، وكأن لسان حاله يقول : " هاهم العرب الفصحاء فاسألهم وتأكّد ممّا سمعه غيرك "[24] .

ومن الأدلة القاطعة على أنّ السّماع العربيّ يُمكن لأي باحث كان أنْ يتحقق من فصاحته قول ابن المرزُبان السيرافيّ (ت 385 هـ) عن أحد الأبيات الّتي استشهد بها سيبويه : "... ولكنّ الرّواية على ما أنشد سيبويه . ولم يقل سيبويه : إنّه لا يجوز غير ما أنشده . ولكنّه أنشد البيت على الوصف الّذي روته الرّواة ، وذكر وجه روايته "[25]، فهذا دليل على أنّ بعض اللغويّين تحققوا من بعض العبارات الّتي استشهد بها سيبويه وهم يعلمون أنّ كلّ ما استشهد به هو عربيّ فصيح لأنّ النّاقل عربيّ فصيح .

وهذا ما جعل الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح يطمئن من فصاحة كلّ ما استشهد به سيبويه شعرًا كان أو نثرًا ، فاطمئنانه يرجع إلى هذين السّببين :

أ- أنّ كلّ ما رواه سيبويه هو مسموع عن العرب الفصحاء .

ب- عدم وجود أي عالم قديم أو باحث من المحدثين أتى بحجج مقنعة تناقض ما أتى به سيبويه.

3 – إنّ لجوء العلماء الّذين عاشوا قبل سيبويه ، وفي زمانه إلى الكتابة – هذا يراه البعض حجّة على أنّ النّحاة العرب قد استشهدوا بغير الفصحاء – هو قليل جدًّا ، وعلى قِلّته فإنّ النّحاة العرب اعتمدوا عليه لتحقيق غايتين :

الأوّلى : توثيق بعض المعلومات الّتي سمعوها عن العرب الفصحاء أو عن شيوخهم الموثوق بهم ، وهي معلومات يحتمل صحّتها .

الثّانيّة : تدوين ما سمعوه من أجل المحافظة عليه .

إنّ عدم اعتماد اللغويّين على النّصوص المكتوبة بشكل كبير يرجع إلى عدم ثقتهم بها ، إذ أنّها تحتوي على معلومات مكذوبة وحقائق مزيّفة ، أمّا المسموع فهو منقول عن الفصحاء ومن نقلة فصحاء عاشوا في زمن الفصاحة .

هذه هي النّصوص المحفوظة ، أمّا النّوع الثّاني من النّصوص ، فهو النّصوص الحرّة العفويّة كما سمّاها الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح .

وهي نصوص أخذها اللّغويّون(بما فيهم النّحاة) مباشرة من أصحابها دون واسطة أي : أنّها أُخذت ممّن تكلّم بها عفويًّا ، فهي بذلك تختلف عن النّصوص المحفوظة كونها لم ينقلها فرد عن آخر ، وليست تأديّة لكلام سابق ، وأغلب محتواها هو الكلام المنثور ، وكثيرا من الشّعر، إضافة إلى بعض القصائد كقصائد بني أميّة ، وقد وردت في الكتاب الكثير من العبارات الّتي تثبت استشهاد سيبويه بها ، ومن ذلك قوله : " وزعم عيسى أنّه سمع ذا الرّمة ينشد هذا البيت نصبًا "[26].

وكان اللّغويّون يلقّنون لتلاميذهم بعضا من هذه النّصوص ويقومون بدراستها مفردات وتراكيب ، ومن هؤلاء نذكر: أبا عمرو بن العلاء ، وتلاميذه : الأصمعيّ وأبا عبيدة وأبي زيد والمفضل الضّبيّ وابن السّكيت واللّحيانيّ وغيرهم .

يمثّل الجزء المنثور القسم الأكبر من هذه النّصوص الحرّة أورده النّحاة كشواهد على صحّة قواعدهم ، وهو مأخوذ من لغة الاستعمال اليوميّ ، وكتاب سيبويه - وغيره من الكتب - يتضمّن كثيرا من هذه النّصوص ، حيث كانوا يعمدون إليه للمقارنة بينه وبين الشّعر ، من ذلك قول سيبويه : " ... وهذا كلام أكثر ما يكون في الشّعر وأقلّ ما يكون في الكلام "[27].

فالّذي يتّضح من هذا النّص وغيره أنّ سيبويه وغيره من النّحاة كانوا يفرّقون بين الشّعر ولغة الكلام اليوميّ العفويّ خلافًا ما يدّعيه بعض المحدثين ، وإلّا فكيف نفسر المقارنة الّتي كانوا يجرونها بينهما .

هذا ، وهناك نوع آخر من الكلام المنثور - هو كلام محفوظ - سمّاه الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح بالكلام الجامد ، وهو " الّذي لا يجوز استعماله إلّا على الصّورة الّتي سار بها بين النّاس وهي الأمثال وما يجري مجراها من التّراكيب الجامدة "[28] .

والأمثال كما هو معروف هي نصوص يتداولها النّاس في أحاديثهم دون أنّ يمسّوها بتغيير أو تحريف ، والعرب عرفت الأمثال وتداولتها الألسن لاحتوائها على معاني عميقة ودقيقة ، فهي ذات أهميّة تاريخيّة واجتماعيّة ومكانتها في نفوس العرب كبيرة .

والقول بأنّ هذه النّصوص مأخوذة من اللّغة اليوميّة العفويّة لا يطعن في فصاحتها .

تحدثنا عن أقسام النّصوص المستشهد بها ، وهي القرآن الكريم ، وقراءاته ، وكلام العرب شعره ونثره ، والمباديء الّتي يتميّز بها السّماع اللّغويّ عند العرب من وجهة نظر الأستاذ

عبد الرّحمن الحاج صالح ، كما تحدثنا عن أنواع النّصوص الّتي استشهد بها النّحاة ، وسنتحدث فيما يلي عن الأدلّة الّتي تثبت صحّة ما يحتويه هذا السّماع .

2 . 3 . مقاييس الصّحة لمحتوى المدوّنة :

قطعت اللّسانيّات الغربيّة أشواطًا كبيرة بفضل الاستعانة بكلّ ما يُستجد في مختلف العلوم من جهة ، وتوظيفها لمناهج فعّالة قادرة على تفسير نظام اللغّة والكشف عن أسراره من جهة أخرى ، فنتج عن ذلك مصطلحات لسانيّة تحمل مفاهيم حُدّدت بدقّة كبيرة ، ومن جملة المصطلحات اللّسانيّة الجوهريّة : (المدونة/ corpus) ، أقول : الجوهريّة لأنّ الطّعن في علميّة مدوّنة أي لغة من اللّغات يعني مباشرة الطّعن في صحّة قوانين تلك اللّغة .

إنّ المدوّنة في اللّسانيّات الحديثة هي ذلك الرّصيد اللّغويّ المجموع عن المتكلمين الفصحاء ، أي مستعملي اللّغة بالسّليقة ويشترط فيها التّمثيل والّتنوع والموضوعيّة ، أمّا التّمثيل فيُقصد به أنّ يمثّل ما جّمع من لغة كلّ الفئات الاجتماعيّة النّاطقة بها ، أمّا التّنوع فهو أن ينوّع اللغويّ من المصادر المأخوذ عنها ، كما أنّ اللّغويّ الجامع للمدوّنة عليه أنّ يلتزم الحيّاد فلا يتدخل فيما جمعه لأي سبب كان إيديولوجيّ أو نفسيّ أو اجتماعيّ ، وسنرى إن كانت هذه الشروط تتوفر في اللّغويّين العرب أم لا ، وبالتالي علميّة ما جمعوه .

عرّف العلّامة عبد الرّحمن الحاج صالح المدوّنة بقوله إنها : " عبارة عن مسموع مسّجل يتكون من كلام تكلم به بعض من يمثّل حقّ التمثيل اللغّة المراد وصفها "[29] .

ثمّ شرع في نقد الشّروط الّتي وضعها اللّسانيّون الغربيّون للمدوّنة، حيث ذهب إلى أنّه ليس من الضّروري أنّ يُقتصر في جمع المدوّنة على لغويّ واحد ، بل " قد يجتمع عدد من اللغويّين يشتغلون بنفس اللّغة ويقوم كلّ واحد بتحريات ميدانيّة حول اللّغة المعيّنة فإذا صحّ أن نسند ما يجمعه كلّ واحد منهم إلى نفسه فلا مانع أن نقول عن مجموع هذه المدونات حول اللّغة الواحدة أنّها المدوّنة أو المسموع المدون عن هذه اللّغة . فهكذا كان مسموع العلماء العرب القدامى "[30].

إنّ علماء اللّغة العربيّة جمعوا - كما هو معروف - نصوصًا كثيرة تضمّ القرآن الكريم، والحديث النّبوي الشريف ، وكلام العرب الفصحاء ، لكنّهم لم يستشهدوا بها كلّها، بل اختاروا بعضها ، وهي تمثّل عيّنة صادقة - حسب الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح - للأسباب التالية:

أ – التّحديد الدّقيق للأمكنة الّتي جمع اللغويّون منها اللّغة العربيّة .

ب – التّحديد الدّقيق لزمن الفصاحة اللّغويّة .

ج – التزام النّحاة العرب بما جُمع فلم يتدخلوا فيه ، ولم يضيفوا إليه شيئا من عندهم .

رغم التزام النّحاة العرب بهذه الشّروط إلّا أنّه قد يعترض معترض على شساعة الأمكنة الّتي أخذ النّحاة منها، فشبه الجزيرة العربيّة تحتوي على قبائل كثيرة ، وبالتّالي فإنّ هذا الاعتراض هو اعتراض منطقيّ جدًّا ، فمن الممكن أنّ تحتوي المدوّنة العربيّة بهذا الشّكل العديد من الاختلافات اللّغويّة ، وقد قلت سابقًا إنّ الانسجام شرط ضروريّ في المدوّنة ، فالمعروف أنّ السّماع اللّغويّ العربيّ قد امتدّ حوالي قرنين ونصف في الحواضر وأربعة قرون في البوادي ، وهي مدّة طويلة ، كما أنّ اللغويّين العرب قد توسّعوا في الأماكن الّتي اخذوا منها ، وهذا يطرح فرضيّة دخول الاستعمالات اللّهجيّة المختلفة في المسموع العربيّ .

يجيبنا العلّامة عبد الرّحمن الحاج صالح عن التّساؤلات الّتي يُمكن أنّ تُطرح ، من دون أن ينفي الفرضيّة الّتي وضعناها ، بل يرى أنّ أي مدوّنة يُمكن أنّ تحتوي على استعمالات غير مطّردة ولا متجانسة ، فاللّغة تخضع للتّحول في كل مستوياتها ، وإلاّ فكيف يُمكن تفسير المفردات والعبارات الشّاذة؟ وفي هذا المعنى يقول أندري مارتيني / A . Martinet : " كلّ لغة تُصاب بالتغيير في كلّ وقت ... فيكفي أن ننظر مجاري استعمالها بالتفصيل لنكشف عن بعض المسائل التحويليّة يُمكن أنّ تفضي بها بعد مدة طويلة إلى لغة غير اللّغة الأوّلى "[31].

لاشك أنّ مدّة جمع اللّغة العربيّة هي مدّة طويلة ، وهذا ما سمح للّغويّين العرب من سماع كلّ المعطيات ومن كلّ أماكن الفصاحة السّليقيّة ، كما سمح لهم من التّحقق ممّا جمعوه ، إلّا أنّ طول مدّة الجمع يطرح احتمال تدخل اللّغويّين في المدوّنة الّتي سمعوها ، إمّا بالحذف أو الزيادة خدمة لمذاهبهم ، ودعمًا لقواعدهم ، وهذا منافٍ تمامًا لمبدء الموضوعيّة ، يردّ الأستاذ عبد الرّحمن الحاج صالح عن هذا الاحتمال بقوله : "... والحقّ أنّ هذا لم يحصل بتاتا عند الأكثريّة الساحقة من العلماء وخاصّــة عند سيبويه وشيوخه وسيردّ على المبرد العلماء في ذلك ردّا شديدا "[32] ، فاللّغويون العرب كانوا يمثّلون جماعة واحدة لا يضيفون إلى ما سمعوه شيئا .

الخاتمة :

في خاتمة هذا البحث يمكن تسجيل النتائج التالية :

- مفهوم المدوّنة من المفاهيم الاساسيّة والجوهريّة في اللّسانيّات العربيّة الحديثة والقديمة .

- استعمل علماء اللغة العربيّة قديما مصطلح السّماع وهو مصطلح يحمل مفهوم المدوّنة عند اللّسانيين المحدثين.

- إن المدوّنة هي الرّصيد اللّغويّ المجموع عن المتكلمين الفصحاء أي مستعملي اللّغة بالسّليقة ، وهذا ينطبق على النّصوص التي جمعها اللّغويون العرب .

- إنّ اللّغويّين العرب اشتركوا في سماعهم عن الفصحاء ، وبالتّالي لم يتجرأ أحدٌ منهم أنّ يضيف لما سمعه حتّى يتوافق مع هواه أو مذهبه .

- بُنيت المدوّنة اللّغويّة عند العرب على أسس علميّة أثبتناها في هذا البحث بالأدلّة العقليّة والنقليّة .

- المدوّنة العربيّة هي مدوّنة مفتوحة على الزمان والمكان حتى انتهى عصر الفصاحة في القرن الرّابع في البواديّ وفي النصف الثانيّ من القرن الثالث في المدن بينما المدوّنة الغربية فمغلقة .

هوامش البحث

---

[1] النظرية الخليليّة الحديثة هي قراءة جديدة للتراث العربيّ في ضوء ما توصلت إليه اللّسانيّات الحديثة .

[2] لسانيّ جزائريّ من مواليد 1927 بمدينة وهران ، درس في الأزهر وفي جامعة باريس ، رئيس المجمع الجزائري للّغة العربيّة ، ينظر الغلاف الخارجي لكتاب بحوث ودراسات في اللّسانيات العربيّة .

[3] عبد الرّحمن (الحاج صالح) : السّماع اللّغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة . الرّغاية ، الجزائر : المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعية . 2007 م ص 7 .

[4] المدوّنة اللغويّة هو مصطلح يستعمله اللّسانيون المحدثون ، أما علماء اللّغة العربيّة القدامى فيستعملون مصطلح السّماع أو النّقل أو المنقول .

[5] ابن الأنباريّ (أبو البركات) : ابن الأنباريّ (أبو البركات) : الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة في أصول النّحو، تحقيق : سعيد الأفغاني . مطبعة الجامعة السّوريّة . 1377 هـ ، ص 80 ، 81 .

[6] السّيوطيّ (جلال الدّين) : السّيوطيّ (جلال الدّين) : الاقتراح في علم أصول النّحو ، قرأه وعلّق عليه : محمّد سليمان ياقوت ، دار المعرفة الجامعية . 1426 هـ ، 2006 م . ص 74 .

[7] عبد الرّحمن (الحاج صالح) : السّماع اللغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 251 .

[8] المرجع نفسه ، ص 252 .

[9] النحل : 103 .

[10] أحمد (مختار عمر) : البحث اللّغويّ عند العرب . ط 01 . القاهرة : مصر : عالم الكتب . 1971 م ، ص17.

[11] السّيوطيّ (جلال الدّين) : الاقتراح في علم أصول النّحو ، ص 75 ، 76 .

[12] الأنعام ، من الآية 137 .

[13] النّساء ، 01 .

[14] الأعراف ، 10.

[15] البقرة من الآية 61 .

[16] أحمد مختار عمر: البحث اللّغويّ عند العرب ، ص 17 .

[17] عبد الرّحمن (الحاج صالح) : منطق العرب في علوم اللّسان ، ص 96 .

[18] عبد الرّحمن (الحاج صالح) : السّماع اللّغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 254 .

[19] المرجع نفسه ، ص 254 .

[20] المرجع نفسه ، ص 254 .

[21] المرجع نفسه ، ص 255 .

[22] المرجع نفسه ، ص 257 .

[23] المرجع نفسه ، ص 258 .

[24] المرجع نفسه ، ص 259 .

[25] السّيرافيّ (ابن المرزُبان) : شرح أبيات سيبويه ، تح : محمّد عليّ الرّيح هاشم . دار الفكر : القاهرة.1394 هـ، 1974 م ، ج 01 ، ص 39 .

[26] سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان) : الكتاب ، تحقيق وشرح : عبد السّلام محمّد هارون . ط 3 . القاهرة : مكتبة الخانجي . 1408 هـ، 1988 م ج 01 ، ص 250 .

[27] المصدر نفسه . ج 01 ، ص 277 .

[28] عبد الرّحمن (الحاج صالح) : السّماع اللّغويّ العلميّ ومفهوم الفصاحة ، ص 263 .

[29] المرجع نفسه ، ص 267 .

[30] المرجع نفسه ، ص 268 .

[31] A . Martenit . éléments de linguistique générale .A . Colin .paris .1960. 2eme ed .1967.

[32] عبد الرّحمن (الحاج صالح) : السّماع اللّغويّ العلميّ عند العرب ومفهوم الفصاحة ، ص 173 .